مقدمة (١)

﴿ فى معرفة الفصاحة والبلاغة ﴾

الفصاحة

أَلفصاحة تُطلَق فى اللُّغة على معان كثيرة — منها البيانُ والظُّهور قال الله تعالى «وأخى هارونُ هو أفصح منِّى لسانا» أى أبينُ مِنِّى قولا ويقال أفصح الصَّبيُّ فى منطقه إذا بان وظهر كلامه .

وقال أبو هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين ـ الفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له . وقال الرازى فى نهاية الايجاز ـ وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين الفصاحة والبلاغة : وقال الجوهرى فى كتاب الصحاح ـ الفصاحة هى البلاغة

(١) مقدمة مشتقة من قدَّم اللازم وهذه مقدمة كتاب لانها ألفاظ تقدمت أمام المقصود لارتباط له بها وانتفاع بها فيه ـ بخلاف مقدمة العلم فهى معان يتوقف الشروع عليها كبيان حد العلم المشروع فيه وموضوعه وغايته

واعلم أن علوم البلاغة أجل العلوم الادبية قدراً وأرسخها أصلا وأبسقها فرعا وأحلاها جنى وأعذبها وردا لانها العلوم التى تستولى على استخراج درر البيان من معادنها وتريك محاسن النكت فى مكامنها (ولولاها لم تر لسانا يحوك الوشى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويريك بدائع من الزهر ، وينثر بين يديك الحلو اليانع من الثمر) فهى الغاية التى تنتهى اليها أفكار النظار ، واللآلئ التى تتطلبها غاصة البحار لهذا كانت منزلتها تلو العلم بتوحيد الله تعالى

وقالت العرب — أفصح الصُّبح إذا أضاء ، وفَصَح أيضا ، وأفصح الأعجميُّ إذا أبان بعدَ أن لم يكن يُفصِح ويُبين ، وفصح اللَّحان إذا عبَّر عمَّا فى نفسه وأظهره على وجه الصَّواب دون الخطأ

وفى اصطلاح أهل المعانى، عبارة عن الألفاظ البيِّنةِ الظاهرة المُتبادرةِ الى الفهم ، والمأنوسة الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حُسنها .

وهى تقع وصفاً للكلمة ، والكلام ، والمتكلِّم ، حَسبَما يعتبر الكاتب اللَّفظةَ وحدَها أو مَسبوكةً مع أخواتِها

فصاحة الكلمة

فصاحة الكلمة سلامتها من أربعة عيوب

١ تنافُرِ الحروف ٢ غرابةِ الاستعمال ٣ مخالفةِ القياس ٤ الكراهةِ فى السمع (١)

الاوَّل « تنافُرِ الحروف » هو وصفٌ فى الكلمة يوجب ثِقلها على السمع وصعوبة أدائها باللِّسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج وهو نوعان :

١ شديدٌ فى الثِّقل كالظَّش (للموضع الخشن (٢)) ونحو : هُعْخُع « لنبت ترعاه الابل (٣) » من قول أعرابى

* تركت ناقتى تَرْعَى الهُعْخُع *

---

(١) و بذلك تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من الخلل ـ واعلم أنه ليس تنافر الحروف يكون موجبه دائما قرب مخارج الحروف اذ قربها لا يوجبه دائما ـ كما أن تباعدها لا يوجب خبتها ـ فها هى كلمة « بغمى » حسنة وحروفها من مخرج واحد

٢ وخفيف كالنَّقنقة « لصوت الضفادع » والنُّقاخ « للماء العذب الصافى » ونحو : مُسْتَشْزِرات « بمعنى مرتفعات » من قول امرئ القيس يصف شعر ابنة عمّه

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلَا تَضِلُّ العُقَاصُ فِى مُثَنًّى ومُرْسَلِ (١)

ولا ضابطَ لمعرفة الثّقل والصّعوبة سوى الذّوق السّليم والحِسّ الصّادق النّاجمين عن النّظر فى كلام البُلَغاء وممارسة أساليبهم (٢)

وهو الشفة ، وكلمة (ملع) متنافرة ثقيلة وحروفها متباعدة المخارج ، وأيضاً ليس موجب التنافر طول الكلمة وكثرة حروفها (١) « الغدائر » الضفائر والضمير يرجع إلى (فرع) قبله (والاستشزار) الارتفاع (والعقاص) جمع عقيصة وهى الخصلة من الشعر (والمثنى) الشعر المفتول (والمرسل) ضده ـ أى ابنة عمه لكثرة شعرها بعضه مرفوع ، وبعضه مثنى ، وبعضه مرسل ، وبعضه معقوص ملوى

(٢) الالفاظ تنقسم إلى ثلاثة أقسام قسمان حسنان ، وقسم قبيح ، فالقسمان الحسنان أحدهما ماتداول استعماله السلف والخلف من الزمن القديم إلى زماننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشى ، والآخر ماتداول استعماله السلف دون الخلف ، ويختلف فى استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله ـ وهذا هو الذى يعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشياً وهو عندنا وحشى

ولا يسبق وهمك إلى قول قصراء النظر بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغى أن تعلم أن الذى نستحسنه نحن فى زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مستحسنا ، والذى نستقبحه هو الذى كان عندهم مستقبحاً والاستعمال ليس بدليل على الحسن فاننا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن وانما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن فى كل الأحوال ـ واعلم أن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب

الثانى غَرابة الاستعمال ، وهى كونُ الكلمة غيرَ ظاهرةِ المعنى ولا مألوفةَ الاستعمال عند العرب الفُصحاء ، لأنّ المعوّلَ عليه فى ذلك استعمالهم والغرابة قسمان :

القسم الأول : مايُوجب حيرة السّامع فى فهم المعنى المقصُود من الكلمة لتَردّدها بين معنيين أو أكثرَ بلا قرينة . وذلك فى الألفاظ المُشتركة « كمسرَّج » من قول رُؤْبَة بن العَجاج :

وَمُقْلَةً وَحَاجِباً مُزَجَّجَا وفاحماً وَمَرْسِناً مُسَرَّجا (١)

فلا يُعلم ما أراد بقوله « مُسرَّجا » حتى اخْتَلَفَ أئمّة اللُّغة فى تخريجه فقال « ابن دُريد » يُريد أنّ أنفه فى الاستواء والدِّقّة كالسّيف السّريجى

لانه شئ ليس للتقليد فيه مجال وانما هو شئ له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه ـ ألا ترى أن لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم لا يختلف أحد فى حسنها ـ وكذلك لفظ البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إياها بل يعاب مستعملها و يغلظ له النكير حيث استعملها ـ فلا تظن أن الوحشى من الألفاظ ما يكرهه سمعك و يثقل عليك النطق به وانما هو الغريب الذى يقل استعماله فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة وذلك فى اللفظ عيبان كونه غريب الاستعمال وكونه ثقيلا على السمع كريها على الذوق . وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شئ من معرفة هذا الفن أصلا ـ انتهى عن المثل السائر بتصرف (١) « مزججا » مدققاً مطولا (فاحما) شعراً اسود كالفحمة (مرسنا) بكسر الميم وفتح السين كمنبر ـ أو بفتح الميم وكسر السين كمجلس ومعناه أنفاذا لمعان كالسراج ـ أو ذا صقالة واحد يداب كالسيف السريجى أى المنسوب الى سريج وهوقين حداد تنسب اليه السيوف فى الدقة والاستواء

وقال « ابن سيدَه » يُريد أنه فى البريق واللَّمعان كالسّراج (١) فلهذا يَحتار السّامعُ فى فهم المعنى المقصود لتردّد الكلمة بين معنيين بدون « قرينة » تُعيِّن المقصود منهما

فلأجل هذا التّردّد، ولأجل أن مادة فعّل تدلّ على مجرد نسبة شئ لشئ لا على النّسبة التّشبيهية كانت الكلمة غيرَ ظاهرة الدّلالة فصارت غريبة

وأما مع القرينة فلا غرابةَ كلفظة « عَزَّر » فى قوله تعالى (فالذين آمنوا وعزّروه ونصروه) فانها مشتركة بين التعظيم والأهانة — ولكن ذكر النصر قرينة على ارادة التعظيم

القسم الثانى : مايُعاب استعماله لاحتياج الى تتبُّع اللُّغات وكثرة البحث والتفتيش فى المعاجم « قواميس متن اللغة المطولة »

« ا » فمنه مايُعثر فيها على تفسيرٍ بَعْدَ كَدٍّ وبَحثٍ نحو : تَكَأْكَأتُم « بمعنى اجتمعتُم » من قول عيسى بن عمرو النَّحوى :

مَا لَكُمُ تَكَأْكَأْتُمْ (٢) عَلَىَّ كَتَكَأْكُئِكُم على ذِى جِنّةٍ (٣)
إفرَنْقِعُوا عنّى (٤) ونحو مُشَمَخِرٍّ فى قول بِشْرِ بن عوانه يَصِفُ الأسدَ :

(١) أى ولفظة مسرج غير ظاهرة الدلالة على ما ذكر لأن فعل انما يدل على مجرد النسبة وهى لاتدل على التشبيه فأخذه منها بعيد — لهذا أدخل الحيرة على السامع فى فهم المعنى المقصود من الكلمة لترددها بين معنيين أو أكثر بلاقرينة ومثله قول الشاعر

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

فلا يعلم ماذا أراد بقوله فعلت مالم أفعل — أكان يبكى إذا رحلوا — أم كان يهيم على وجهه من الغم الذى لحقه — أم يتبعهم اذا ساروا — أم يمنعهم من المضى على عزمة الرحيل (٢) اجتمعتم (٣) جنون (٤) انصرفوا

نفرٌ مُدَرَّجًا بِدَمٍ كأنّى هَدَمْتُ به بِنَاءً مُشمخِرًّا

«ب» ومنه مالم يُعثر على تفسيره نحو (جحلنجع) من قول أبى الهَمَيْسَع

مِنْ طَمحةٍ صَبِيزها جَحلَنْجَعَ [١] لم يحضها الجدول بالتَّنوُّع

الثالث (مخالفة القياس) كون الكلمة غير جارية على القانون الصّرفى المُستنبَط من كلام العرب ؛ بأن تكونَ على خلاف ماثبت فيها عن الواضع [٢] مثل (الأجْلَل) فى قول أبى النَّجْم :

أَلحمدُ للهِ العَلِىِّ الأَجْلَلِ الواحدِ الفَرْدِ القَدِيمِ الأوَّلِ

فانَّ القياس الأَجَلّ بالإدغام ولا مُسَوِّغ لفكه

وكقطع همزة الوصل فى قول جَميل :

وقال ذلك حين سقط عن دابته فاجتمع الناس حوله (١) الطمحة النظرة والصبير السحاب المتراكم ـ وقبله

ان تمنعى صوبك صوب المدمع يجرى على الخد كضئب النعثع

الضئب الحب والنعثع اللؤلؤ ـ قال صاحب القاموس ذكروا جحلنجع ولم يفسروه وقالوا كان أبو الهميسع من أعراب مدين وكنا لا نكاد نفهم كلامه اه

(٢) اعلم أن ماثبت عن الواضع موافقاً أو مخالفاً للقياس فصيح فمثل (آل وماء) أصلهما أهل وموه أبدلت الهاء فيهما همزة وابدال الهمزة من الهاء وان كان على خلاف القياس إلاّ أنه ثبت عن الواضع ومثل (أبى يأبى) بفتح الباء فى المضارع والقياس كسرها فيه لأن فعل بفتح العين لا يأتى مضارعه على يفعل بالفتح الا اذا كان عين ماضيه أو لامه حرف حلق كسأل ونفع ؛ فمجيئ المضارع بالفتح على خلاف القياس الا أن الفتح ثبت عن الواضع ومثل (عور يعور) أى فالقياس فيهما عار يعار بقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فتصحيح الواو خلاف القياس إلا أنه

أَلاَ لاَ أرى إثنين أحسنَ شِيمةً على حَدَثَانِ الدَّهرِ منِّى ومن جُمل[١]

يُستثنى من ذلك ما ثبت استعماله لدى العرب مخالفاً للقياس

ولم يَخرُج عن الفصاحة لفظتا المشرِق والمغرِب بكسر الراء والقياس فتحها فيهما وكذا لفظتا المُدهُن والمُنخُل والقياس فيهما مِفعَل بكسر الميم وفتح العين وكذا نحو قولهم عَوِر والقياس عارَ لتحرُّك الواو وانفتاح ماقبلها.

الرابع (الكراهة فى السّمع) كون الكلمة وحشيةً تأنفها الطباعُ وتمجُّها الاسماع وتنبو عنه كما ينبو عن سماع الاصوات المنكرة (كالجِرِشَّى للنفس) فى قول أبى الطّيب المتنبّى يمدح سَيفَ الدَّولة

مُبارَكُ الاِسْم أغرُّ اللّقَبْ كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

تطبيق (١)

ماالذى أخلّ بفصاحة الكلمات فيما يأتى؟؟

قال يحيى بن يعمر لرجل حاكمته امرأته اليه « أئِنْ سألتكَ ثَمن شَكْرِها وشَبرِك أنشأتَ تُطلّها وتُضهلُها[٢]

وقال بعض أمراء العرب وقد اعتلّت أمّه فكتب رقاعاً وطرحها فى المسجد الجامع بمدينة السلام: صِينَ امرؤٌ وَرَعَا دعَا لامرأة إنْفحلَة[٣] مُقسئنَة[٤] قد مُنِيتْ بأكل الطَّرمُوق[٥] فأصابها من أجله

ثبت عن الواضع (١) الشيمة الخلق، والحدثان نوائب الدهر، وجمل قرسه

(٢) الشكر الرضاع والشبر النكاح وتطلها تسعى فى بطلان حقها وتضهلها تعطيها الشئ القليل (٣) يابسة (٤) مسنة عجوز (٥) ابتليت بأكل

الاستِمْصَالُ (١) بأن يَمُنَّ الله عليها بالأَطرِ عشاش (٢) والإِبرِ غشاش
أسمعُ جَعجَعَة (٣) ولاَ أرَى طحناً — الإِسفِنطُ (٤) حرام — وهـذا
الخُنشليل (٥) صقيل ، والفَدَوْكَسُ مُفترسٌ (٦)
يومٌ عَصَبْصَبٌ وهِلَّوْفٌ ملأ السَّجْسَجَ طَلاَ (٧)

أمِنّا أنْ تُصَرَّعَ عن سَماحٍ وللآمال فى يدِكَ اصطراعُ (٨)

وقال الفرزدق

واذا الرِّجالُ رأَوا يَزِيدَ رأيتَهُم خُضعَ الرِّقابِ نَوَاكِسَ الأَبصارِ (٩)

وقال أبو تمام

قد قُلتُ لمَّا اطلَخَمَّ الأمرُ وانبعَثَتْ عَشْوَاءُ تالِيَةً غُبسًا دَهاريسا (١٠)

الطين (١) الاسهال (٢) البرء وكذا معنى ما بعده

(٣) جعجعة غير فصيحة لتنافر حروفها وهو مثل يضرب لمن يقول ولا يفعل

(٤) الاسفنط الخمر (٥) الخنشليل السيف (٦) الفدوكس الاسد فكل من هذه الالفاظ الثلاثة وحشية غير مألوفة (٧) شديد البرد فيهما والسجسج الأرض التى ليست بسهلة ولا صلبة (٨) أراد أنهم أمنوا أن يغلبه غالب يصرعه عن السماح ويمنعه منه ـ وأما قوله (وللآمال فى يدك اصطراع) فمعناه تنافس وتغالب وازدحام فى يده ـ يريد كثرة نواله وكرمه .واستعماله للفظة الاصطراع بهذا المعنى بعيد.

(٩) فقد جمع (ناكس) على (فواعل) وهذا لا يطرد إلا فى وصف لمؤنث عاقل لالمذكر كما هنا إلا فى موضعين (فوارس وهوالك) والناكس مطأطئ الرأس

(١٠) قال صاحب المثل السائر ان لفظ (اطلخم) من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين فى أنها غريبة وأنها غليظة فى السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة (دهاريس) واطلخم أى اشتد وعظم ، والعشواء الليلة المظلمة ، والغبسة جمع أغبس وغبساء وهى الشديدة الظلام مثلها ـ والدهاريس جمع دهريس وهى الدواهى

وقال شمر

وأحمقٍ ممّن يكرع الماء قال لى ... دَعِ الخمرَ واشربْ من نُقاخٍ مُبرّدِ (١)
يظلّ بموماةٍ ويمسى بغيرها ... جحيشاً ويعرورى ظهورَ المسالكِ (٢)
فلا يُبرَمُ الأمرُ الذى هو حالِلٌ ... ولا يُحلُلُ الأمرُ الذى هو مُبرِمُ (٣)
مُقابِلُ فى ذُرا الأذواءِ منصبهُ ... عَيصاً فعيصاً وقُدْموساً فقُدْموسا

وقال أبو تمام

نِعْمَ مَتاعُ الدُّنيا حَباكَ بهِ ... أوْرَعُ لاجَيدَرٌ ولاجَبْسُ

وقال امرؤُ القيس

رُبَّ جَفْنَةٍ مُتْعَنْجِرَةٍ، وَطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ، وخُطبةٍ مُستحضَرَةٍ وقصيدةٍ مُحبرةٍ تبقى غداً بأنقرةَ (٤) أكلتُ العَرِينَ، وشربتُ

---

(١) الماء العذب الصافى

(٢) الموماة المفازة الواسعة ويقال للمستبد برأيه جحيش ويقال اعرورى الفرس ركبها عريانا ـ وان لفظة جحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة ـ ويالله العجب أليس أنها بمعنى فريد وفريد لفظة حسنة رائقة ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختل شئ من وزنه، فتأبط شراً ملوم من وجهين فى هذا الموضع أحدهما أنه استعمل القبيح والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه (٣) العيب فى هذا البيت من حيث فك الادغام فى حالل ويحلل بلا مسوغ وهو مخالف للقياس الصرفى

(٤) يريد جفنة صحفة كبيرة ملأى تشبع عشرة والمتعنجرة السائلة والمسحنفرة الماضية بسرعة وطعنة متسعة ببلد أنقرة وهو كلام امرئ القيس لما قصد ملك الروم ليستنجده على قتلة أبيه فهوته بنت الملك و بلغ ذلك القيصر فوعده أن يتبعه بالجنود إذا بلغ الشأم أو يأمر من بالشأم من جنوده بنجدته فلما كان بأنقرة بعث اليه بثياب

الصُّمادح [١] إنِّى اذا أنشدتُ لأحبَنْطَى [٢] نزل بزيدٍ داهيةٌ خَنْفَقِيق [٣]
وحلّ به عَنْقَفِير. لم يَجدمنها مَخلصاً. رأيتُ ماء نقاخا [٤] يَنْباعُ [٥] من
سفح جبل شامخ. إخالُ أنّك مَصوُون [٦] — البُعاق [٧] ملأ الجرْ دَحْلَ
فانْ يَكُ بعضُ الناس سيفاً لدولة ففى النَّاس بُوقاتٌ لها وطبُولُ [٨]
نَقِي تَقِيٌّ لم يُكثر غَنيمة بنكْهةِ ذِي القُرْبى ولا بَحقَلَّدِ
إنَّ بَنِيَّ لِلئَامٌ زهدَهْ مَالىَ فى صُدُورهم مِن مَوْدَده [٩]
رَمتنى مىٌّ بالهوَى رَمى مَمْنَع من الوحش لوْطٌ لم تعِقْه الأوَالسُ [١٠]
بعينين نَجلاوين لم يجر فيهما ضَمَانٌ وجيد حلى الدرّ شامسُ [١١]
علمى الى علمك كالقرارة فى المُتْعنْجَر [١٢]
ان بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئا وبعضه أحكامُ
فيه ما يحلُب البَراعة والفهـ ـم وفيه ما يحلُب البِرسامُ [١٣]
ومن الناس مَن تجوزُ عليهم شُعراءٌ كأنها الخازَبَازُ [١٤]

مسمومة فلما لبسها تساقط لحمه فعلم بالهلاك فقال رب الخ (١) تريد اللحم والماء الخالص (٢) احبنطى انتفخ بطنه (٣) دهياء (٤) عذبا (٥) ينبع ويسيل (٦) مصوون ليست فصيحة لمخالفتها للقياس الصرفى (٧) البعاق مطر السحاب والجرد حل الوادى وليستا فصيحتين لغرابتهما (٨) بوقات مزامير والقياس فى جمعه أبواق (٩) القياس مودّة بالادغام (١٠) لوط لازق والاوالس النياق (١١) ضرب من القلائد (١٢) المتعنجر لفظة متنافرة ـ والمعنى إن علمى مقيس الى علمك كالغدير الصغير موضوعا فى جانب البحر (١٣) القريض الشعر والهراء الكلام الفاسد الذى لا نظام له ، وأحكام جمع حكم والمراد الحكمة ؛ والبرسام بفتح الباء وكسرها التهاب الصدر (١٤) الخازباز صوت الذباب ـ وتجوز تروح وتقبل

تطبيق (٢)

ما الذى أخلَّ بفصاحة الكلمات فيما يلى ؟؟

يانفسُ صبراً كل حيٍّ لاق ... وكل اثنين الى افتراق
أبعدْ بَعِدْتَ بياضاً لا بياض لهُ ... لأنت أسودُ فى عينى منَ الظُّلَم (١)
لانَسبَ اليومَ ولاَ خُلَّه ... إتَّسعَ الفتقُ على الرَّاقِع (٢)
فأيقنتُ أنِّى عند ذلك ثأرٌ ... غداتئذٍ أو هالكٌ فى الهوالك (٣)
مهلاً أعَازِلَ قدْ جَرَّبت منْ خُلقى ... أنِّى أجودُ لأقوامٍ وان ضَنُنوا
تشكو الوَجى منِ أظْلَلٍ وأظْلَل ... من طول إملالٍ وظَهرٍ مُمْلِلِ (٤)

(١) الظلم الليالى الثلاث آخر الشهر . ولا بياض له لاحسن له . قاله المتنبى يخاطب الشيب له وخالف القياس فى الاسود لأنه لا يبنى اسم تفضيل من نحو سود وحمر (٢) الخلة الصداقة والفتق الشق والراقع مصلح الفتق وقد خالف القياس فى إتسع حيث قطع همزة الوصل (٣) هوالك فواعل لايطرد فى وصف العاقل كما هنا (٤) الوجى الجفا والأظلل باطن خف البعير وخالف القياس بفك الادغام

﴿ تنبيهات ﴾ الأول من عيوب فصاحة اللفظة المفردة كونها مبتذلة أى عامية ساقطة للقالق والشنطار ونحوهما ، والابتذال ضربان

(١) ما استعملته العامة ولم تغيِّره عن وضعه فسخف وانحطت رُتبته وأصبح استعماله لدى الخاصة مَعيباً ، كلفظة البِرسام فى قول المتنبى .

إن بعضاً من القَريض هُرَاء ... ليس شيئاً وبعضُه أحكامُ
فيه ما يَجْلِبُ البراعةَ والفهـــم وفيه ما يجلب البِرْسام

وكلفظة الخازباز فى قوله :

ومن الناس مَن تجوزُ عليهم ... شُعراء كأنها الخازِباز

(١) وقال ابن جحدر :

حلفتُ بما أرقلتْ حوله هَمَرجَاةٌ خَلقُها شَيْظَمُ
وما شَبْرَقَتْ من تَنوفِيَةٍ بها مِن وَحَى الجِنِّ زِيزَيْزَمُ[١]

(٢) وقال ذو الرُّمة :

حتَّى اذا الهَيْقُ أمسى شَامَ أفْرُخَهُ وهُنَّ لامُؤْيِسٌ نأيًا ولا كَتَبُ[٢]

---

(٢) ما استعملته العامة دالاً على غير ما وضع له وليس بمُستَقْبَح ولا مكروه كقول المتلمِّس :

وقد أتنامَى الهَمَّ عند احتضاره بِنَاجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مَكْدَمُ

وكقول أبي نُواس

اختصمَ الجُود والجمالُ فيك فصارا إلى جِدال
فقال هذا بمينه لى للعُرف والبذْل والنَّوال
وقال هذاك وجهه لى للظَّرْف والحُسن والكمال
فافترقا فيك عن تراض كلاهما صادق المقال

فوصف فى الأول البعير بالصَّيْعَرِيّة وهى مختصة بالنُّوق ، وفى الثانى الوجه بالظرف وهو فى اللغة مختص بالنطق

للقالق والشنطار ونحوها (الثانى) لاتستعمل الالفاظ المبهمة اذا كان غرضك التعيين واحضار صورة الشئ أو المعنى المراد فى الذهن (الثالث) لاتستعمل اللفظ المشترك الا مع قرينة تبين المراد من معانيه المشتركة ـ وقد تقدم ذلك مفصلا

(١) الأرقال . الأسراع . الهمرجلة . الناقة السريعة . الشيظم . الطويل الجسيم من الابل والخيل ، شبرقت ـ قطعت ـ التنوفية والتنوفة المفازة : الوحى . الصوت الخفى ـ زيزيزم : حكاية أصوات الجن (٢) الهيق . الظليم (ذكر النعام) شام البرق نظر اليه أين يقصد ، وأين يمطر . واستعمل هنا للنظر الى الأفرخ . النأى . البعد

وقال أبو نُواس :

يامَن جَفَانى ومَلاَّ نَسِيتَ أَهلا وسَهْلا

تدريب (١)

ما الذى أخلَّ بفصاحة الكلمات فيما يلى ؟؟

قال النّابغة الذُّبيانى

(١) أو دُمْيَةٍ فى مَرْمَرٍ مَرْفُوعة بُنِيَتْ بآجُرٍّ يُشَادُ بقَرْمَدِ [١]

(٢) وقال أبو تمّام

لكَ هَضْبَةُ الحِلْمِ التى لو وَازَنَتْ أَجَأً إذا ثَقُلَتْ وكان خفيفا

وحَلاَوَةُ الشِّيَمِ التى لوْ مَازَجَتْ خُلُقَ الزَّمَانِ لَمَازَجَتْهُ لَطِيفا [٢]

(٣) وقال المتنبّى

يُوَسِّطه المَفاوزَ كلَّ يوم طِلاَبُ الطّالبِين لا الانْتِظارُ

تدريب (٢)

ما الذى أخلَّ بفصاحة الكلمات فيما يأتى ؟؟

(١) لم يَلْقَهَا إلا بِشِكَّةِ باسِلٍ يخشى الحوادِثَ حازمٍ مُسْتَعْدِدِ [١]

(٢) وأصبح مبيضَّ الضَّريب كأنه على سَرَوات البَيْتِ قُطْنٌ مُنْدَفِ [٢]

---

(١) الدمية . الصورة المنقوشة المزينة فيها حمرة كالدم . تضرب مثلا فى الحسن المرمر . الرخام . الآجر مايبنى به ـ القرمد . بفتح القاف ما يطلى به للزينة . وقيل حجارة لها خروق يوقد عليها فتنضج ويبنى بها . وقيل الخزف المطبوخ

(٢) الهضبة . الرابية أجأ . جبل القدم ـ الغليظ الجافى ـ وصف الشيم بالحلاوة وهى خاصة بالعينين ـ وخلق الزمان بالظرف وهو خاص بالنطق

(١) الشكة . الخصلة . الباسل . الشجاع (٢) قائلة الفرزدق . الضريب

(٣) فأيقنتُ أنّى عند ذلك ثائرٌ غداتئذٍ أوهالكٌ فى الهوالكِ (١)

(٤) وملمومةٍ سيفيّةٍ ربعيّةٍ يصيح الحصافيها صياخ اللقائق (٢)

(٥) وألقى بصحراء الغبيط بعاعهُ نزولَ اليمانى ذو العياب المحمّلِ (٣)

(٦) ليس التّعلّلُ بالآمالِ من أربى
ولا القنوع بضنك العيش من شيمى (٤)

فصاحة الكلام

فصاحة الكلام سلامته بعد فصاحة مُفرداته ممّا يُبهِم معناه ويَحول دون المراد منه (٥) ـ وتتحقّق فصاحته بخلوّه من ستة عيوب

١ تنافُر الكلمات مُجتمعة ٢ ضعف التأليف ٣ التّعقيد اللفظى •

الشبيه والمثيل . سروات البيت . أعاليه . مندف . مندوف من قولهم ندف القطن ضربه بالمندف (١) النائر الذى لايبقى على شى حتى يدرك ثأره

(٢) قائله المتنبى . ملمومة . كتيبة مجتمعة . سيفية . نسبة لسيف الدولة ربعية نسبة الى ربيعة قبيلته . اللقالق . جمع لقلقة وهى صوت اللقلاق (طائراً) أو هى كل صوت فى اضطراب وحركة (٣) قائله امرؤ القيس . الغبيط . الارض المطمئنة وقيل الواسعة المستوية يرتفع طرفاها. البعاع ثقل السحاب من المطر يقال بع السحاب يبع بعا و بعاعا . اذا ألح بمكان وألقى عليه بعاعه أى ثقله . العياب جمع عيبة وهى مايجعل فيه الثياب . يقال جعل الرجل خير متاعه فى عيبته . والمحمل يروى بكسر الميم على جعل اليمانى رجلا ـ و بفتحها على جعله جملا ـ والمعنى أن هذا المطر نزل بهذا المكان ولم يبرح كما نزل الرجل فى ذلك الموضع وضمير ألقى يرجع الى السحاب فيما قبله (٤) القنوع . المسئلة . يقال قنع قنوعا . اذا سأل والمراد القناعة

(٥) المراد بفصاحة الكلام أن يكون واضح المعنى . سهل اللفظ . حسن السبك

٤ التعقيد المعنوى ٥ كثرة التكرار [١] ٦ تتابُع الإضافات

الأوَّل « تنافُر الكلمات مجتمعة » أن تكون الكلمات ثقيلةً من تركيبها مع بعضها على السَّمع . عَسرة النّطق بها مُجتمعةً على اللِّسان (وإن كان كل جزء منه على انفراده فصيحاً) — والتنافر نوعان

— ا — شديد الثِّقل كالشطر الثانى فى قوله

وَقَبْرُ حرْب بمكان قفرْ وَليس قُرْبَ قَبرِ حَرْبٍ قبرُ [٢]

— ب — وخفيف الثِّقل نحو قول أبى تمَّام

كريمٌ متى أمْدَحْهُ أمْدحْهُ وَالوَرَى معى وَإذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحدِى [٣]

ولذلك يجب أن تكون كل لفظة من ألفاظه واضحة الدلالة على المقصود منها جارية على القياس الصرفى عذبة سلسلة كما يكون تركيب الكلمات جاريا على القواعد النحوية خاليا من تنافر الكلمات مع بعضها ومن التعقيد — فمرجع الفصاحة سواء فى اللفظة المفردة أو فى الجمل المركبة الى أمرين (مراعاة القواعد والذوق السليم)

١ — (٥و٦) الحق أن هذين العيبين قد احترز عنهما بالتنافر — على أن بعضهم أجازهما ووقوعهما فى القرآن فى قوله تعالى « ونفس وما سوَّاها » الآيات — وفى قوله تعالى «ذكر رحمت ربك عبده زكريا» (٢) حرب بن أمية قتله قاتل هذا البيت وهو هاتف من الجن صاح عليه (وقفر) خال من الماء والكلأ ، وقبر اسم ليس مؤخر ، وقرب خبرها مقدم — قيل إن هذا البيت لا يمكن انشاده ثلاث مرات متوالية الا ويغلط المنشد فيه لان نفس اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها يحدثان ثقلا ظاهراً ، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة . (٣) أى هو كريم اذا مدحته وافقنى الناس على مدحه ويمدحونه معى لاسداء احسانه اليهم كاسدائه الىّ واذا لمته لا يوافقنى أحد على لومه لعدم وجود المقتضى للوم فيه — وآثر لمته على هجوته

الثانى « ضعف التأليف » أن يكون الكلام جارياً على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جُمهور العلماء ـ كوصل الضمير بن، وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف مع أنه يجب الفصل فى نحو هذا ـ كقول المتنبى

خَلَتِ البلادُ من الغَزالةِ لَيلَهَا فأَعاضَهَاكَ اللهُ كى لا تحزنا

وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظا ورُتبة وحُكما فى غير أبوابه[1] نحو

ولو أنّ مجداً أخلدَ الدهرَ واحداً من الناس أبقَى مجدُه الدّهرَ مُطعِماً[2]

الثالث (التّعقيد اللّفظى) هو كون الكلام خفِىّ الدّلالة على المعنى

مع أنه مقابل المدح اشارة الى أنه لا يستحق الهجو ولو فرط منه شئ فانما يلام عليه فقط . والثقل فى قوله « أمدحه » لما بين الحاء والهاء من التنافر للجمع بينهما وهما من حروف الحلق ـ كما ذكره الصاحب اسماعيل بن عباد

(١) المجموعة فى قول بعضهم

ومرجع الضمير قد تأخّرا لفظا ورتبة وهذا حصرا
فى باب نعم وتنازع العمل ومضمر الشأن ورُبَّ والبدل
ومبتدا مفسّر بالخبر وباب فاعل بمخلف فاخبر

واعلم أن ضعف التأليف ناشئ من العدول عن المشهور الى قول له صحة عند بعض أولى النظر ـ أما إذا خالف المجمع عليه كجر الفاعل ورفع المفعول ففاسد غير معتبر، والكلام فى تركيب له صحة واعتبار (٢) فان الضمير فى من (مجده) راجع الى (مطعما) وهو متأخر فى اللفظ كما يرى وفى الرتبة لانه مفعول به ، فالبيت غير فصيح ، ومطعم أحد رؤساء المشركين وكان يدافع عن النبى ﷺ .

ومعنى البيت أنه لو كان مجد الانسان سببا لخلوده فى هذه الدنيا لكان مطعم ابن عدى أولى الناس بالخلود لانه حاز من المجد مالم يحزه غيره

المراد به بحيث تكون الألفاظ غير مرتّبة على وفق ترتيب المعانى

(وينشأ ذلك الخفاء من تقديم أوتأخير أوفصل بأجنبي بين الكلمات التى يجب أن تتجاور ويتّصل بعضها ببعض) [١] وهو مذموم لأنه يُوجب اختلال المعنى واضطرابه ـ كقول المتنبي

جفَخَتْ وهُمْ لاَ يَجْفَخُونَ بِهابِهِمْ شِيَمٌ على الحسَبِ الأَغَرِّ دَلاَئِلُ [٢]

أصله — جفخت (افتخرت) بهم شِيَمٌ دلائل على الحسَبِ الأغر وهم لايجفخون بها .

الرابع (التّعقيد المعنوى) وهو كون التركيب خفيّ الدّلالة على المعنى المراد [٣] لخلل فى انتقال الذهن من المعنى الأصلى الى المعنى المقصود بسبب إيراد اللّوازم البعيدة المفتقرة الى وسائط كثيرة مع عدم ظهور القرائن الدّالة على المقصود « بأن يكون فهمُ المعنى الثانى من الأول بعيداً عن الفهم عُرفا [٤] » كما فى قول عبّاس بن الأحْنَفْ

---

(١) وذلك كالفصل باجنبي بين الموصوف والصفة ، و بين البدل والمبدل منه وبين المبتدأ والخبر : وبين المستثنى والمستثنى منه مما يسبّب ارتباكا واضطرابا شديداً

(٢) فلفظة جفخت مرة الطعم واذا مرت على السمع اقشعر منها : ولو استعمل المتنبى عوضا عن جفخت (فخرت) لاستقام البيت وحظى فى استعماله بالأحسن

(٣) بحيث يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيه كلمات فى غير معانيها الحقيقية فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذى يريده فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع نحو : نشر الملك ألسنته فى المدينة ، تريد جواسيسه والصواب نشر عيونه

(٤) فالمناط فى الصعوبة عدم الجريان على ما يتعاطاه أهل الذوق السليم لا كثرة

سأطلب بُعْدَ الدَّارِ عنكم لتقربوا وتسكبُ عينايَ الدُّموعَ لتجمُدَا(١)

جعلَ سكبَ الدُّموع كناية عمّا يلزم فراق الأحبّة من الحزن والكمد فأحسن وأصابَ فى ذلك ، ولكنّه أخطأ فى جعل جمود العين كنايةً عمّا يوجبه التّلاقى من الفرح والسُّرُور بقُرْب أحبّته ، وهو خفىٌّ وبعيدٌ(٢) إذ لم يُعرفْ فى كلام العرب عند الدُّعاء لشخص بالسّرُور أن يقال له جمُدت عينك ، أولا زالت عينك جامدةً . بل المعروف عندهم أنّ جمود العين إنّما يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن ، كما فى قول الخنْساء

أعَينىّ جُودا ولَا تَجمُدا ألَا تبكيانِ لصَخْرِ النَّدى

الوسائط الحسية فانها قد تكثر من غير صعوبة كما فى قولهم : فلان كثير الرماد كناية عن المضياف فان الوسائط كثيرة فيه ولكن لا تعقيد

(١) تسكب بالرفع عطف على أطلب ، وبالنصب عطف على بُعد من قبيل عطف الفعل على اسم خالص من التأويل بالفعل . والمراد طلب استمرار السكب لا أصله لئلا يلزم تحصيل الحاصل

(٢) ووجه الخفاء والبعد : أن أصل معنى جمود العين جفافها من الدموع عند ارادتها منها ، والانتقال منه إلى حصول السرور بعيد ، لأنه يحتاج إلى وسائط بأن ينتقل من جمود العين إلى انتفاء الدمع منها حال ارادة البكاء ، ومنه الى انتفاء الدمع مطلقا ، ومنه الى انتفاء الحزن ونحوه « فان ذلك هو السبب غالبا فى الدمع » ومن انتفاء الحزن ونحوه إلى السرور ـ ولا يخفى أن الشاعر قد طوى وحذف جميع هذه الوسائط فأورث بطء الانتقال من المعنى الاصلى الحقيقى الى المعنى المراد ـ وخالف حينئذ أسلوب البلغاء . فنشأ من ذلك التعقيد المعنوى . واعلم أن الشاعر أراد أن يرضى بالبعد والفراق ، ويعوّد نفسه على مقاساة الاحزان والأشواق ، ويتحمل من أجلها حزنا يفيض

وقول أبى عطاء يرثى ابن هُبيرة

ألا إنَّ عَيْناً لم تجُد يَوْمَ وَاسِطٍ عليكَ بجارِى دمعِهَا لَجمودُ (١)

وهكذا كل الكِنايات التى تستعملها العرب لأغراض ويُغيّرها المتكلم ويريد بها أغراضاً أخرى تُعتبر خروجاً عن سُنن العرب فى استعمالاتهم ويُعد ذلك تعقيداً فى المعنى حيث لا يكون المراد بها واضحاً

الخامس كثرة التّكرار » (٢) كون اللّفظ الواحد إسماً كان أوفعلاً أو حرفاً ، وسواء أكان الاسم ظاهراً أو ضميراً ، تَعدّد مرّة بعد أخرى بغير فائدة ـ كقوله

إنّى وأسطارٍ سُطِرنَ سَطْراً لَقائلٌ يانصرُ نصرُ نصرا

وكقول المتنبي

أقِلْ أنِلْ أقطعْ احملْ علَّ سلَّ أعِدْ زِدْ هَشّ بَشّ تفضّلْ أدنِ سُرَّصل

وكقول أبى تمّام فى المديح

كأنّه فى اجتماع الرُّوح فيه لَهُ فى كلِّ جارحةٍ من جسمِهِ رُوحُ

السادس « تتابعُ الأضافات » كون الاسم مضافا إضافةً مُتداخلة غالباً ، كقول ابن بابك

من عينيه الدموع ليتوصّل بذلك الى وصل يدوم ومسرة لا تزول ـ على حد قول الشاعر

ولطالما اخترتُ الفراق مغالطا واحتلت فى استمار غرس ودادى

ورغبت عن ذكر الوصال لأنها تبنى الأمور على خلاف مرادى

(١) أى لبخيلة بالدموع (٢) المراد بالكثرة ههنا ما فوق الوحدة ـ فذكر الشئ ثانيا تكرار . وذكره ثالثا كثرة ، وانما شرطت الكثرة لان التكرار بلا كثرة

حمامةَ جَرعاحَومةِ الجَنْدَلِ اسجَعِي فأنتِ بمَرْأى مِنْسُعادَ ومَسْمَع (١)

تطبيق

بيّن العيوب التى أخلّتْ بفصاحة الكلام فيما يأتى

لك الخيرُ غيرى رامَ من غيرك الغنى وغيرى بغير اللّازقيّة لاحقُ
وأزْورَّ مَنْ كانَ له زائراً وعافَ عافى العُرف عِرْفانُه (٢)
أنّى يكونُ أبا البرايا آدمٌ وأبوكَ والثّقَلانِ أنتَ محمدُ (٣)
ومن جاهلٍ بى وهُوَ يجهَلُ جهلَه ويَجهل عِلمى أنه بى جاهلُ
وقَلْقلت بالهمّ الذى قَلْقَلَ الحشا قَلاقلَ همٍّ كلّهنّ قَلاقلُ
وما مِثلهُ فى النّاس إلا مُمَلَّكاً أبو أمّهِ حىٌّ أبوه يُقاربُه (٤)

لا يخل بالفصاحة ـ والا لقبح التوكيد اللفظى (١) ففيه اضافة حمامة الى جرعا وهو تأنيث الاجرع وهو المكان ذو الحجارة السود أو مكان الرمل الذى لا ينبت شيئا « وجرعا » مضاف الى « حومة » وهى معظم الشىء « وحومة » مضاف الى « الجندل » بسكون النون وهو الحجر، والمراد به هنا مكان الحجارة، فهو بمعنى الجندل بفتح النون وكسر الدال ـ وقوله * فأنت بمرأى من سعاد ومسمع * أى أنت بحيث تراك سعاد وتسمع كلامك ـ يقول : اسجعى ياحمامة أرض قفرة سبخة ، فان سعاد تراك وتسمعك

(٢) العيب فى تنافر الكلمات . والمعنى انحرف عنه من كان يزوره وكره طالب الاحسان معرفته (٣) يريد كيف يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان أى الانس والجن ـ يعنى أنه قد جمع مافى الخليقة من الفضل والكمال ـ وقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما أبوك محمد ، وقدم الخبر على المبتدأ تقديما قد يدعو الى اللبس فى قوله « والثقلان وأنت » على أنه بعد هذا التعسف لم يسلم كلامه من سخف وهذر

(٤) يريد وما مثله فى الناس حىّ « أحد » يقاربه « يشابهه » الا مملكا ، أبوأمه

إلى ملك ماأمُّهُ من مُحارِب ... أبوه ولا كانت كُلَيبٌ تصاهِره (١)

ليسَ إلاَّكَ يا علىُّ هُمامٌ ... سَيفُه دُونَ عِرْضِه مسلولُ (٢)

كَحَلِيمِهُ ذا الحلمِ أثوابُ سُؤْدُدٍ ... ورقَّى نداهُ ذا النَّدَى فى ذُرا المجد (٣)

من يهتدِى فى الفِعل مالا يهتدى ... فى القول حتَّى يفعل الشُّعَرَاء (٤)

يَزِى بنوه أبا الغَيْلاَن عنْ كِبر ... وحُسْن فعلٍ كما جُوزِى سِنِمَّارُ (٥)

وما من فتًى كنَّا من النَّاس واحداً ... به نَبتغى منهم عَدِيلاً نُبادِلُهُ (٦)

لمَّا رأى طالبوه مُصعباً ذُو عِرُوا ... وكاد لو ساعدَ المقدورُ يَنتَصِرُ

نشر الملِكُ ألسنَته فى المدينة . . مُرِيداً جواسيسَه . أى والصّواب

أبوه ـ فقدَّم المستثنى على المستثنى منه ـ وفصل بين مثل وحى وهما بدل ومبدل منه و بين أبو أمه وأبوه وهما مبتدأ وخبر ـ و بين حى و يقارب به وهما نعت ومنعوت ولا يفصل بين كل منهما بأجنبى . والمعنى : وليس مثل ابراهيم فى الناس أحد يشبهه فى الفضائل الا ابن أخته هشام ـ فضمير أمه عائد على الملك وضمير أبوه عائد على ابراهيم الخال

(١) يريد الى ملك أبوه ليست أمه من محارب ـ أى ما أمه منهم (٢) فيه ضعف تأليف حيث وضع الضمير المتصل بعد إلاّ وحقه وضع المنفصل (اياك)

(٣) أى من كان ديدنه الحلم والكرم حاز السيادة والرفعة ـ فالضمير فى حلمه لذا الحلم المذكور بعد ـ فهو المتأخر لفظا ومعنى وحكما ـ وكذا الضمير فى نداه لذا الندى

(٤) أى يهتدى فى الفعل مالا يهتديه الشعراء فى القول حتى يفعل

(٥) العيب فيه من جهة أن ضمير بنوه عائد على أبا الغيلان وهو متأخر لفظا ورتبة لانه مفعول ورتبته التأخر عن الفاعل : وسنمار رجل رومى بنى قصر الخورنق بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فخرّ ميتا لئلاّ يبنى لغيره مثله

(٦) أى وما من فتى من الناس كنّا نبتغى واحداً منهم عديلا نبادله به

« نشر الملك عيونه » (١)

لو كنت كنتَ كتمتَ السِّر كنت كما ... كنَّا وكنتَ ولكنْ ذاكَ لم يكنِ

ألاَ لَيْتَ شِعْرِي هل يَلومنَّ قومُه ... زُهيراً على ما جَرَّ من كلِّ جانِبِ

دانٍ بعيدٍ محبٍّ مبغضٍ بَهِجٍ ... أغرَّ حلوٍ مُرٍ ليِّنٍ شَرِسِ (٢)

* لأنت أسودُ فى عينى من الظُّلَم (٣) *

وتُسْعِدنى فى غمْرَةٍ بعدَ غمرَةٍ ... سبوحٌ لها منها عليها شواهدُ (٤)

وليست خراسانُ التى كان خالدٌ ... بها أسدٍ اذ كان سيفاً أميرها (٥)

والشَّمسُ طالعةٌ ليستْ بكاسفةٍ ... تبكى عليك نُجومَ الليل والقمرا (٦)

أرضٌ لها شَرَفٌ سوَاها مثلُها ... لو كان مِثلك فى سِواها يوجَدُ

والمجدُ لا يَرْضى بأنْ ترضى بأن ... يرْضى المعاشر منك إلاَّ بالرِّضا

فى رفع عَرْشِ الشَّرْ ... ع مثلك يَشرعُ

ومن لم يذُدْ عن حوْضه بِسلاحه ... يُهَدَّمْ ومنْ لم يُظْلَم الناس يُظلِم (٧)

---

(١) لان الذى يتوصّل به الى الاخبار عادة انما هو العيون لا الألسنة

(٢) فيه توالى الصفات وذلك مما يحدث فى الكلام ثقلا : وهذا مما يؤخذ على المتنبى

(٣) والقياس أشد سواداً لانه لا يبنى أفعل التفضيل من الافعال الدّالة على الالوان

(٤) معنى البيت : وتسعدنى بالفوز بالغنائم والنجاة فى شدّة بعد شدّة فرس سبوح أى حسنة العدو لا تتعب راكبها فكأنّها تسبح على الماء . (٥) خالد وأسد علمان والتعقيد فيه نشأ من تقديم أسد الذى هو جزء مما أضيف اليه إذ (٦) أى والشمس ليست بكاسفة نجوم الليل وهى تبكى عليك والقمر يبكى عليك أيضا ففيه تعقيد نشأ من الفصل بين الصفة التى هى كاسفة ومفعولها الذى هو نجوم بجملة « تبكى عليك »

(٧) فيه تعقيد معنوى . حيث كنى بالظلم عن المحافظة على الحقوق وهو بعيد

فأصبحتْ بعد خَطِّ بهجتها كأنَّ قفراً رسومها قلما (١)
وما أرْضَى لمُقلتهِ بحلم اذا انتَبهتْ توهَّمه ابتِشاكا (٢)

فصاحة المتكلم

فصاحة المُتكلِّم عبارةٌ عن المَلَكة (٣) التى يَقْتَدِر بها صاحبها على التَّعبير عن المقصُودِ بكلام فصيح فى أىِّ غرضٍ كان

فيكون قادراً بصفة الفصاحة الثّابتة فى نفسه على صياغة الكلام مُتمكِّناً من التّصرف فى ضروبه . بصيراً بالخوض فى جهاته ومناحيه

أسئلة على الفصاحة يطلب أجوبتها

ماهى الفصاحة لغة واصطلاحا ؟ . ـ ماالذى يوصف بالفصاحة ثم تخرج الكلمة عن كونها فصيحة .

ماهى فصاحة المفرد ؟ . ـ ماهو تنافر الحروف ، والى كم ينقسم ؟ . .

---

(١) أى فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خطّ رسومها (٢) المقلة العين والحلم الرؤيا التى يراها النائم ، وابتشاك الكذب . قال الصاحب لم يسمع الابتشاك فى شعر قديم ولا محدث (٣) أى كيفية وصفة من العلم راسخة وثابتة فى نفس صاحبها يكون قادراً بها على أن يعبّر عن كل ماقصده من أىّ نوع من المعانى كالمدح والذم والرثاء وغير ذلك بكلام فصيح . فاذاً المدار على الاقتدار المذكور سواء وجد التعبير أو لم يوجد ـ وأنّ من قدر على تأليف كلام فصيح فى نوع واحد من تلك المعانى لم يكن فصيحاً ـ وأنه لا يكون فصيحاً إلا إذا كان ذا صفة من العلم راسخة فيه وهى المسماة « بالملكة » يقتدر بها على أن يعبّر عن أىّ معنى قصده بكلام فصيح

ماهى الغرابة وماموجبها ؟ ماهى مخالفة القياس ؟ ماهى الكراهة فى السمع ؟ ماهى فصاحة الكلام وبما تتحقق ؟ . ـ ماهو تنافر الكلمات . وما موجبه والى كم يتنوّع، ماهو ضعف التأليف ؟ ـ ماهو التعقيد ؟ . ـ والى كم ينقسم ؟ ماهو كثرة التكرار ؟ . ـ ماهو تتابع الاضافات ؟ . ـ ماهى فصاحة المتكلم

البلاغة

ألبلاغة فى اللغة الوُصول والانتهاء ، يقال بلغ فلان مراده ـ اذا وصل اليه ، وبلغ الركب المدينة ـ اذا انتهى اليها [1] ومَبلغ الشّىء مُنتهاه

أى خال عن الخلل فى مادته وذلك بعدم تنافر كلماته » وعن الخلل فى تأليفه « وذلك بعدم ضعف تأليفه » وعن الخلل فى دلالته على المعنى التركيبى « وذلك بعدم التعقيد اللفظى والمعنوى » فان كان شاعراً اتّسع أمامه ميدان القول فى جميع فنون الشعر من نسيب وتشبيب ومديح وهجاء ووصف ورثاء وعتاب واعتذار وأشباه ذلك ـ وان كان ناثراً حاك الرسائل المحلاة والخطب الممتعة الموشاة فى الوعظ والارشاد والحفل والأعياد

(١) البلاغة هى تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة لها فى النفس أثر خلاّب ، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه والاشخاص الذين يخاطبون والبلاغة مأخوذة من قولهم . بلغت الغاية اذا انتهيت اليها ، وبلغتها غيرى والمبالغة فى الشىء الانتهاء الى غايته ـ فسمّيت البلاغة بلاغة لانها تنهى عن المعنى الى قلب السامع فيفهمه . وسمّيت البلغة بلغة لأنك تتبلّغ بها فتنتهى بك الى ما فوقها ـ وهى البلاغ أيضا . ويقال : الدنيا بلاغ ، لأنها تؤديك إلى الآخرة والبلاغ أيضا التبليغ ـ ومنه : هذا بلاغ للناس ـ أى تبليغ ـ ويقال بلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغاً ، كما يقال نبل الرجل نباله اذا صار نبيلا ـ قال أعرابى : البلاغة التقرب من البعيد ، والتّباعد من الكلفة ، والدّلالة بقليل على كثير ـ وقال عبد الحميد بن

وتقع فى الاصطلاح وصفا للكلام والمتكلم فقط دون الكلمة لعدم السّماع

بلاغة الكلام

ألبلاغة فى الكلام مطابقته لما يقتضيه حال الخطاب [1] مع فصاحة ألفاظه « مفردها ومركبها »

وحال الخطاب « ويسمى بالمقام » هو الأمر الحامل للمتكلّم على أن

يحيى ـ البلاغة تقرير المعنى فى الافهام من أقرب وجوه الكلام ـ وقال ابن المعتز البلاغة البلوغ الى المعنى ولم يطل سفر الكلام ـ وقال العتابى ـ البلاغة مدّ الكلام بمعانيه اذا قصر . وحسن التأليف إذا طال ـ وقال عبد الله بن المقفع : البلاغة لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ـ فمنها مايكون فى الاشارة . ومنها مايكون فى الحديث ومنها ما يكون فى الاستماع . ومنها ما يكون فى الاحتجاج . ومنها ما يكون شعراً ومنها مايكون ابتداء . ومنها ما يكون جواباً . ومنها ما يكون سجعاً . ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة هذه الأبواب الوحى فيها والاشارة الى المعنى أبلغ ـ والايجاز هو البلاغة . فالسكوت يسمى بلاغا مجازاً وهى فى حالة لاينجع فيها القول ولا ينفع فيها إقامة الحجج ـ إمّا عند جاهل لايفهم الخطاب ، أو عند وضيع لايرهب الجواب ، أو ظالم سليط يحكم بالهوى ولا يرتدع بكلمة التقوى ـــ واذا كان الكلام يعرى من الخير أو يجلب الشر فالسكوت أولى .

(١) مقتضى الحال هو مايدعو اليه الامر الواقع . أى مايستلزمه مقام الكلام وأحوال المخاطب من التكلم على وجه مخصوص ، ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين ، واعتبار طبقاتهم فى البلاغة وقوتهم فى البيان والمنطق ـ فالسوقة كلام لايصلح غيره فى موضعه والغرض الذى يبنى له ،ولسراة القوم والامراء فن آخر لايسدّ مسده سواه ـ من أجل ذلك كانت مراتب البلاغة متفاوتة بقدر تفاوت

يُوردَ عبارتَه على صورة مخصوصة

والمُقْتَضَى « ويسمّى الاعتبارُ المناسب » هو الصُّورة المخصوصة التى تُورَدُ عليها العبارة

مثلاً ـ المدح ـ حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب

وذكاء المخاطب ـ حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز

فكلٌّ من المدح والذكاء « حال ومقام »

وكلٌّ من الإطناب والإيجاز « مُقتضَى »

وإيراد الكلام على صورة الإطناب (١) أو الإيجاز « مُطابقة

الاعتبارات والمقتضيات . وبقدر رعايتها يرتفع شأن الكلام فى الحسن والقبح ويرتقى صعداً إلى حيث تنقطع الاطماع ، وتخور القوى ، ويعجز الانس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وتلك مرتبة الأعجاز التى تخرس عندها ألسن الفصحاء لو تاقت إلى العبارة . وقد عرف باخبر المتواتر أن القرآن الكريم نزل فى أرقى العصور فصاحة ، وأجلها بلاغة . ولكنه سدّ السّبل أمام العرب عند ما صاح عليهم صيحة الحق فوجفت قلوبهم وخرست شقاشقهم مع طول التحدّى وشدّ النكير (وحقّت للكتاب العزيز الكلمة العليا)

(١) فان اختلاف هذه الظروف يقتضى هيئة خصوصية من التعبير ـ ولكل مقام مقال . فعلى المتكلم ملاحظة المقام أو الحال وهو الأمر الذى يدعوه الى أن يورد كلامه على صورة خاصة تشاكل غرضه وتلك الصورة الخاصة التى يورد عليها تسمى المقتضى ـ أو الاعتبار المناسب ، فمثلا الوعيد والزجر والتهديد مقام يقتضى كون الكلام المورد فيه فخما جزلا . والبشارة بالوعد واستجلاب المودة مقام يتطلبه رقيق الكلام ولطيفه . والوعظ مقام يوجب البسط والاطناب . وكون المخاطب عاميا

للمقتضى » وليست البلاغة [١] إذاً منحصرة فى إيجاد معان جليلة ولا فى اختيار ألفاظ واضحة ، بل هى تتناول مع هذين الأمرين أمراً ثالثاً (هو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعانى والألفاظ مما يكسبها قوة وجمالا)

بلاغة المتكلم

بلاغة المتكلم هى مَلَكة فى النفس [٢] يقتدر صاحبها بها على تأليف

سوقيا أو أميراً شريفا يوجب الاتيان بما يناسب بيانه وعقله .

(١) لان البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبوله ومعرض حسن — وانما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا فى البلاغة ، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى

فعناصر البلاغة إذاً لفظ ومعنى ، وتأليف للالفاظ يمنحها قوة وتأثيراً وحسنا ، ثم دقة فى اختيار الكلمات والاساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال السامعين والنزعة النفسية التى تتملكهم وتسيطر على نفوسهم — فربّ كلمة حسنت فى موطن ثم كانت مستكرهة فى غيره — ورب كلام كان فى نفسه حسنا خلاباحتى إذا جاء فى غير مكانه وسقط فى غير مسقطه خرج عن حدّ البلاغة وكان غرضا لسهام الناقدين

(٢) أى أن الهيئة والصفة الراسخة الثابتة فى نفس المتكلم يمكنه بواسطتها أن يعبّر عن المعانى التى يريد إفادتها لغيره بعبارات بليغة أى مطابقة لحال الخطاب ، فلو لم يكن ذا ملكة يقتدر بها على التصرف فى أغراض الكلام وفنونه بقول رائع ، وبيان بديع بالغاً من مخاطبة كل ما يريد ، لم يكن بليغاً — وإذاً لا بدّ للبليغ أولا من التفكير فى المعانى التى تجيش فى نفسه ، وهذه يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة يظهر فيها أثر الابتكار وسلامة النظر وذوق تنسيق المعانى وحسن ترتيبها ، فاذا تم له ذلك

كلام بليغ مُطابق لمقتضَى الحال مع فصاحته فى أىّ معنى قَصَدَه

وتلك غاية لن يصل اليها الاَّ من أحاط بأساليب العرب خُبراً وعرف سُنن تخاطُبهم فى مُنافراتهم ، ومفاخراتهم ، ومديحهم ، وهجائهم ، وشكرهم واعتذارهم ، ليَلبُس لكلّ حالة لبُوسها « ولكلّ مقام مقال »

تمرين

بيّن الحال ومقتضاه فيما يلى

١ هنَاء محَاذاك العزاء المقدَّما فما عبس المحزونُ حتى تبسَّما

٢ تقول للرَّاضى عن إثارة الحروب (إن الحرب مُتلِفةٌ للعباد ذهَّابَةٌ

عمد إلى الالفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة فألّف بينها تأليفاً يكسبها جمالا وقوة .

فالبلاغة ليست فى اللفظ وحده وليست فى المعنى وحده ولكنها أثر لازم لسلامة تألّف هذين وحسن انسجامهما . وقد علم أن البلاغة أخص والفصاحة أعم لانها مأخوذة فى تعريف البلاغة ـ وأن البلاغة يتوقف حصولها على أمرين ـ الأول : الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المقصود ، والثانى : تمييز الكلام الفصيح من غيره ـ لهذا كان للبلاغة درجات متفاوتة تعلو وتسفل فى الكلام بنسبة ما تراعى فيه مقتضيات الحال وعلى مقدار جودة مايستعمل فيه من الاساليب فى التعبير والصور البيانية والمحسنات البديعية . وأعلى تلك الدرجات مايقرب من حدّ الاعجاز ، وأسفلها ما إذا غيّر الكلام عنه إلى ما هو دون التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم وان كان صحيح الاعراب وبين هذين الطرفين مراتب عديدة .

(١) الحال هنا هو تعجيل المسرة ـ والمقتضى هو تقديم الكلمة الدالة على السرور ـ « وهى كلمة هناء »

(٢) الحال هنا هو إنكار الضرر من الحرب — والمقتضى هو توكيد الكلام

بالطّارف والتّلاد)

٣ يقول الناس إذا رأوا لصًّا أوحريقًا (لِصٌّ — حريق)

٤ قال تعالى (وإنّا لا نَدْرِى أشرٌّ أُريدَ بِمَنْ فِى الأرض أمْ أرَادَ بِهم ربُّهم رَشَدًا)

٥ يقول رائى البرامكة

أصبحتُ بسادةٍ كانوا عيونًا بهم نسقَى إذا انقطع الغَمامُ[١]

ملاحظات

١ التّنافر يُعرف بِالذّوق[٢] السّليم ؛ والحِسّ الصّادق

---

(٣) الحال هنا هو ضيق المقام — والمقتضى هو الاختصار بحذف المسند اليه والتقدير . هذا لص . هذا حريق

(٤) الحال فى (أشرّ أريد) هو عدم نسبة الشر الى الله تعالى . والمقتضى هو حذف الفاعل اذ الاصل . أشر أراده الله بمن فى الارض

والحال فى (أم أراد بهم ربهم رشداً) هو نسبة الخير الى الله تعالى . والمقتضى ابقاء الفاعل من غير حذف

(٥) الحال هنا هو الخوف من الرشيد ناكب البرامكة والمقتضى حذف الفاعل من أصبت (١) الذوق فى اللغة الحاسة يدرك بها طعم المأكل — وفى الاصطلاح قوة غريزية لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية ، وتحصل بالمثابرة على الدرس ، وممارسة كلام أئمة الكتاب ، وتكراره على السمع ، والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه — وأيضا تحصل بتنزيه العقل والقلب عما يفسد الآداب والأخلاق فان ذلك من أقوى أسباب سلامة الذوق

٢ مخالفة القياس تُعرف بعلم الصَّرف

٣ ضعف التّأليف والتّعقيد اللّفظى يُعرفان بعلم النحو

٤ الغرَابة تُعرف بكثرة الاطّلاع على كلام العرب ، والإحاطة بالمفردات المأنوسة

٥ التّعقيد المعنوى يُعرف بعلم البيان

٦ الأحوال ومُقتضياتها تُعرف بعلم المعانى

٧ خلوّ الكلام من أوجه التّحسين التى تكسوه رِقّة ولَطافةً بَعْدَ رِعَايَةِ مُطابقته تَعرف بعلم البديع

فاذاً وجب على طالب البلاغة معرفةُ اللُّغة والصَّرف والنّحو والمعانى والبيان والبديع ـ مع كونه سليمَ الذّوق كثيرَ الاطّلاع على كلام العرب وصاحبَ خِبرة وافرة بكُتُب الأدب ، ودِرَايةٍ تامّة بعاداتهم وأحوالهم واستظهَارٍ للجيّد الفاخر من نَثرهم ونظمهم ، وعلم كامل بالنّابغين من شُعراء وخطباء وكتّاب مِمّن لَهم الأثر البيِّن فى اللّغة ، والفضلُ الأكبرُ على اللّسان العربى المبين

واعلم أن الذوق السليم هو العمدة فى معرفة حسن الكلمات وتمييز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه لأن الألفاظ أصوات ، فالذى يطرب لصوت البلبل وينفر من صوت البوم والغربان ينبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة متنافرة الحروف ـ ألا ترى أن كلمتى المزنة والدّيمة (للسحابة الممطرة) كلتاهما سهلة عذبة يسكن اليها السمع ، بخلاف كلمة البعاق التى فى معناهما فانها قبيحة تصكّ الأذن وأمثال ذلك كثير فى مفردات اللغة تستطيع أن تدركه بذوقك ـ وقد سبق شرح ذلك

واعلم أنه يحسن أيضا بطالب البلاغة أن يَعْرِف شيئاً عن الأسلوب الذى هو المعنى المَصُوغُ فى ألفاظ مُؤَلَّفة على صورة تكون أقربَ لنيل الغرض المقصود من الكلام ، وأفعل فى نفوس سامعيه ، وأنواع الاساليب ثلاثة

(١) الاسلوب العلمى : وهو أهدأُ الأساليب ، وأكثرها احتياجاً إلى المنطق السليم والفكرِ المستقيم ، وأبعدُها عن الخيال الشِّعْرِىّ . لأنه يخاطب العقل ويناجى الفكر ويَشْرَح الحقائق العلمية التى لا تخلو من غموض وخفاء ؛ وأظْهَرُ ميزات هذا الأسلوبِ الوُضُوح . ولابدّ أن يبدوَ فيه أثر القوّة والجَلال ، وقوّته فى سطوع بيانه ورصانةِ حُجَجه ؛ وجَمَاله فى سُهُولةِ عبارته ، وسلامةِ الذّوق فى اختيار كلماته ؛ وحسنِ تقريره المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه الكلام

فيجب أن يُعْنَى فيه باختيار الألفاظ الواضحة الصّريحة فى معناها الخالية من الاشتراك ، وأن تُؤَلَّف هذه الألفاظُ فى سُهولة وجلاء ، حتى تكون ثوباً شفّافاً للمعنى المقصود ، وحتى لا تُصْبِح مَثَاراً للظّنون ومجالا للتّوجيه والتّأويل

ويحسن التّنَحّى عن المجاز ومُحَسّنات البديع فى هذا الأسلوب ، إلاّ مايجىء من ذلك عفواً من غير أن يَمَسّ أصلا من أصوله أو ميزة من ميزاته أمّا التشبيه الذى يقصد به تقريب الحقائق الى الأفهام وتوضيحها بذكر مماثلها ؛ فهو فى هذا الأسلوب حسن مقبول

(٢) الاسلوب الادبى — والجمال أبرزُ صفاته ، وأظهر مُمَيِّزاته ، ومَنْشأُ جماله ما فيه من خيال رائع ، وتَصْوير دقيق ، وتَلَمُّس لوجوه الشّبه البعيدة

بين الأشياء ، وإلباس المعنَوِىّ ثوبَ المحسوس ، وإظهار المحسوس فى صورة المعنوىّ

هذَا ـ ومن السَّهْلِ عليك أن تَعْرِف أن الشّعر والنثر الفَنّىَّ هما مَوْطِنا هذا الأسلوب ، ففيهما يَزْدَهِر ، وفيهما يبلغ قَنَّة الفَنّ والجمال

(٣) **الأسلوب الخطابى** : هنا تَبْرُزُ قوّة المعانى والألفاظ . وقوّة الحجّة والبرهان ، وقوة العقل الخصيب ، وهنا يتحدّث الخطيب إلى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم واستنهاض هممهم ، ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير فى تأثيره ووصوله إلى قرارة النفوس ، ومما يزيد فى تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب فى نفوس سامعيه وقوةُ عارضته ، وسطوعُ حُجَّتِه ونَبَراتُ صوته ، وحسنُ إلقائه ، ومُحْكَمُ إشاراته

ومن أظهر مُمَيّزات هذا الأسلوب التكرارُ ، واستعمال المترادفات وضربُ الأمثال ، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرّنين ، ويحسن فيه أن تتعاقب ضروب التّعبير من إخبار ، إلى استفهام ، الى تعجب ، الى استنكار وأن تكون مواطن الوقف كافية شافية ، ثم واضحاً قويّاً ، ويظنّ النّاشئون فى صناعة الأدب أنه كلمّا كثر المجاز ، وكثرت التّشبيهات والأخيلة فى هذا الأسلوب زاد حسنه ، وهذا خطأ بيّن ، فإنه لا يذهب بجمال هذا الأسلوب أكثرُ من التكلّف ، ولا يُفْسِده شَرٌّ مِنْ تَعَمُّد الصّناعة